٤

علم نفس قرآني جديد

الملك والملكوت.. وأنا

وصف الله نفسه بأنه الملك وبأن له ملكا وملكوتا وجندا مجندة وملأ أعلى وأنه قد وَكَلَ إلى كل فرد من هذا الملأ الأعلى مهمة يقوم بها، فجبريل الروح الأمين هو رسول الوحى وهو الواسطة بين الله وجميع أنبيائه وميكائيل مكلف بالأرزاق وإسرافيل نافخ الصور يوم تقوم الساعة وعزرائيل قابض الأرواح.

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾ (السجدة ـ ١١)

ذلك ملك الموت.. وهم كثير.

﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ (الأنعام ـ ٦١)

ثم هناك الملائكة الحفظة.

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ (الطارق ـ ٤)

والملائكة الكاتبون.

﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ (الانفطار ١٠ ، ١١ ، ١٢)

والملائكة الصافون والملائكة المسبحون والملائكة الحافون بالعرش والملائكة الحاملون للعرش والملائكة العالون وملائكة التصريف.

ملك عظيم من فوق سبع سموات لا يتناهى.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن.. لم لا يباشر الله جميع هذه الشئون بذاته مادامت بيده مقاليد كل شىء وإليه يرجع الأمر كله..

فلماذا لا يفعل بذاته وبدون وسائط ؟

وما الحاجة إلى كل هذا الملأ؟ والجواب.. إنها سنة الله فى خلقه.. فهو يجرى الشفاء على يد جراح وكان فى قدرته أن يشفى بذاته وهو يجرى الأرزاق من باب تجارة أو من باب صناعة وكان فى قدرته أن يوصل المال إلى أصحابه مباشرة دون أسباب.. وهو يوصل إلينا العلم بوسائط الكليات والجامعات والمدارس.. بل هو يوصل العلم إلى أنبيائه عن طريق جبريل.. وكان بالإمكان أن يلقيه فى روعنا مباشرة.

حتى المعجزة الخارقة فإنه يجريها بواسطة فيقول عن الحمل الخارق لمريم:

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا﴾.

ويقول جبريل لمريم :

﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا﴾.

وهو أمر كان يمكن لله أن يفعله مباشرة.

تلك إذن سنته فى الدنيا.

وتلك أيضا سنته فى الآخرة حيث يقيم على النار زبانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وحيث يقيم على أبواب الجنة ملائكة الرضوان.

حتى عرشه العظيم سبحانه يقول لنا القرآن إنه محمول ويحمله ثمانية.

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾.

وهم يحملونه ولا شك بقوة الله ذاته فما ضرورتهم.. ؟؟!!

والجواب لا ضرورة سوى كرمه هو.. حيث شاء بكرمه أن يعطى صفاته الشافية للطبيب ويتجلى بأحكام اسمه العليم على

المعلم ويتجلى باسمه الرزاق على التاجر وباسمه البديع على الفنان ويتكرم بقوته على حاملى عرشه فتلك كلها شواهد كرم منه لا شواهد حاجة إلينا.

ثم إن الوسائط أيضا هى سنته.. فهو إذا أراد أن يعالج الجبل، سلط عليه وسائط مادية مثله لتشكيله.. سلط عليه الرياح والأمطار والسيول تنحته وتشكله أو سلط عليه كائنا ماديا مثل الإنسان ينحت فيه الكهوف والسدود.. ولو أنه سبحانه تجلى على الجبل مباشرة لجعله دكا.

وحينما ظهر جبريل على صورته الحقيقية لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ خر مغشيا عليه.

إن تفاوت المقامات بين الله وملائكته وبين ملائكته وخلقه من البشر وبين البشر وسائر صنوف المادة الجامدة، استدعى وجود البرازخ والوسائط.. فلا يطيق الأسفل أن يتجلى عليه الأعلى مباشرة دون واسطة برزخية.

إننا نقذف نواة الذرة وهى شىء غير منظور بشىء آخر غير منظور، وهى قذائف النيوترون فنتخذ وسائط من جنس ما نتعامل معه.. فنحاول الوصول إلى الشىء الخفى باتخاذ برزخ خفى.. وهو مثال من عالمنا.

وجبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى عالم الملكوت وهو أيضا البرزخ بين الله وبين جميع أنبيائه.. لأنه لا أحد من الأنبياء يطيق الحضرة الإلهية الذاتية مباشرة.. فإن تجلى هذه الحضرة يؤدى إلى سحق ومحق كل شىء.. تماما كما رأينا من حال الجبل الذى أصبح دكا وموسى الذى خر صعقا.

إننا بحكم طبيعتنا البشرية لا نحتمل أنوار الذات الإلهية، فاستدعى التواصل بين الطبيعتين إلى اتخاذ البرازخ.

وكما أن جبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد فكذلك محمد عليه الصلاة والسلام هو برزخنا الأعظم وهو وسيلتنا وواسطتنا وبابنا إلى الفهم عن الله.. لاننا بحكم طبيعتنا المحدودة لا نستطيع أن نصل إلى حضرة الإطلاق دون دليل.

إن الضرورة هنا كانت قيدا علينا نحن، فنحن الضعفاء والله هو القوى ونحن الفقراء إليه وهو سبحانه الغنى عنا.

وكان تنزل الله بين البرازخ ليتواصل معنا كرما منه ولطفا وإيناساً.. لا حاجة منه إلينا، فالله ليس فعالا بنا بل نحن الذين نفعل به ونحن الذين نرى به ونسمع به ونفهم به ونمشى به ونحيا به.. بل إنه هو الظاهر بوجهه في كل شيء.

﴿ أينما تولوا فثم وجه الله﴾.

فهو الملك وهو جميع القوى الفعالة في المملكة من حق وخير وجمال وعدل وكرم وحلم ورأفة ومودة ورحمة وسمع وبصر وعلم، فتلك جميعا أسماؤه تجلت بأحكامها على ما فى المملكة من خلائق.

فإذا سحب منا ربنا قيوميته عدنا عدما واختفى مسرح الوجود كله ولم يبق إلا نوره فهو الحضور المستمر أبدا وأزلا وهو الظاهر أبدا ونحن الغيب.. وهو الوجود ونحن العدم.. وهو الحجة على نفسه وهو برهان وجوده ودليل ذاته وهو ليس فى حاجة إلى دليل يدل عليه.

ومن مبدأ القصة حينما كان الله ولا شيء معه.. إلى الآن حيث مازال ربنا هو هو.. على ما عليه كان.. لم يجد جديد.. فكل

ما حدث كان تحصيل حاصل لما فى علمه.. ومازال هو على ما عليه كان.. فالقول بحاجة الله إلى جنوده ومملكته يعكس القضية ويقلبها.. تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا.. فلا شىء فعال فى ملكه وملكوته سواه إنما هى ثياب ألبسها لنا ومواهب أعطاها لنا وأرزاق وزعها علينا بل إن لبسة الوجود ذاتها منه.. وليس لنا من ذواتنا إلا العدم.

بل اللغز الذى يحيرنى.. هو ذاتى نفسها.

أنا .. مَنْ أكون.. وأنا لست إلا كلمة من كلماته ونفخة من روحه.. ؟!!

أما أحقية الله فى كل شىء فهى أظهر من أن تكون محل شك أو مساءلة.. وبالمثل وجوده وهيمنته وظهوره.

إنما أنا .. ذرة العدم.. التى هى نفسى.. ما أمرها.. وما خطبها وكيف تشخصت من الأزل.. وكيف جاء بها الله ومعها سرها وما تكتم ثم أوجدها ليخرج مكتومها وابتلاها بالشر والخيرلتفصح عن سرها وتفشى مكنونها.

أنا .. ؟

وهل لى هذه الأنا.. أم أنى استعرتها مع ما استعرت من الله.. فهى ثوب ضمن ما ألبسنى الله من ثياب.

ذلك هو السر الذى يحيرنى رغم أنه لا شىء أقرب إلىّ منها.. وهل هناك ما هو أقرب إلىّ من نفسى التى بين جنبى.. ومع ذلك فهى الطلسم.. والتيه.. والمحال.

ثم إن اللغز يصل إلى ذروة استسراره حينما نرى الله يأمر ملائكته بالسجود لهذه النفس التى تشخصت من عدم ويسخر لها ملكه وملكوته ويخضع لها الكون جميعه.

﴿سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه﴾.

يقول الله للعبد الكامل فى كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى:

أنت منى.. أنت تلينى.. وكل شىء فى الوجود يأتى بعدك..

لا شىء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك.. فأنت أقوى من الأرض والسماء أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء.. أقوى من كل ما بدا فى دنيا وآخرة.

إذا تحققت بسرك تحققت بى.. أنا الذى منه كل شىء .. أنا الذى أبديت كل شىء .. أنا الذى هو أنا.

إلى هذه الذروة السذهلة من التشريف تصل هذه الذروة الوجودية التى هى النفس الإنسانية.

فيقول عنها رب العالمين:

أنت منى..

أنت تلينى وكل شىء فى الوجود يأتى بعدك.

لا شىء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك.

فأنت أقوى من الأرض والسماء أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء.. أقوى من كل مابدا فى دنيا وآخرة. (وكل ما فى الوجود باديات يبديها ربنا من خفاء ولا يبتديها).

ويقول للعبد الكامل:

إذا تحققت بسرك تحققت بى. أنا الذى منه كل شىء..

كيف يارب يتحقق الواحد منا بسره.

إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك.

ليس فقط أن يبلغ مقام الكمال بل أيضا أن يلزم هذا المقام فلا يحيد عنه.. وذلك هو غاية التمكين والتثبيت.

وذلك هو المعراج العظيم الذى لا يقدر عليه إلا آحاد بل إن

المُلك والملكوت ذاتهما مجرد معارج لهذه النفس الكاملة والدنيا والآخرة منازلها وهى تسير إلى ربها وقد أقدرها الله على الدنيا.. وعلى تجاوزها.. كما أقدرها على الآخرة وعلى تجاوزها فى مراقى السير إليه.. تلك هى النفس الطلسم المطلسم.

وتلك هى امكاناتها حيث اجتمع فيها أقصى العدم وأقصى الوجود.

وحيث هى منى أقرب إلىّ من كل شىء وأخفى علىّ من كل شىء فهى التى بدأت من لا شىء وأصبحت أقوى من كل شىء.

وحيث يبلغ إبهامها بى إلى البهت والحيرة والذهول:

من أنا .. ؟!!!

ومن أكون .. ؟؟!!

أنا الذى أسجد لى الله الملك والملكوت وسخر لى الكون أجمع.

أنا الذى أمرض وأشيخ وأموت ويفتك بى ميكروب لا يرى لفرط تفاهته .

أنا الذى جئت من قطرة ماء مهين وانتهى إلى جيفة.

إلهى كم تكذب المظاهر وكم تخفى جلودنا حقائق هائلة تحتها.

وكم تتشابه وجوهنا وتختلف منازلنا.. وكم يمشى فى الأسمال والخرق من هم فوق الثريا منزلة.

لهفى على ذلك اليوم الذى تُهتك فيه الأستار وتفتضح الأسرار ويعرف كل منا مَنْ يكون.. ومقدار ما يكون.

وتُرفع الحجب ويُكشف الغطاء ويغدو البصر حديدا ويفاجأ كل منا من نفسه بما لا يعلم.

ويعرف كل منا حقيقته وخبيئته.

ياله من يوم.. ياله من يوم..

التجهيز للقمة المرتقبة

هذه القمة العربية المرتقبة.. ماذا سيجرى فيها.. ؟!!

إن أصداء أشعار نزار قباني ما زالت تدوى فى آذاننا رغم أن الرجل مات ووراه التراب إلا أننا مازلنا نسمع صرخاته.

نحن فى غيبوبة قومية.

ما إستلمنا منذ أيام الفتوحات بريدا.

كلما تزداد إسرائيل إرهابا وقتلا.

نحن نزداد ارتخاء وبرودا.

وبنو عنتر العبسى مشغولون فى نسوانهم.

وبنو مازن مشغولون فى غلمانهم.

وبنو هاشم يرمون السراويل على أقدامهم.

ويبيحون شفاها ونهودا.

ما الذى تخشاه إسرائيل من بعض العرب.

بعدما صاروا يهودا.

كانت كلمات الرجل تقطر بالسم والعلقم.. حتى سمعناه يصرخ فى آخر قصائده .

متى يعلنون وفاة العرب؟

هى كلمات مريرة وظالمة.. فالعرب لم يموتوا ولن يموتوا.. وهذه قمتهم سوف تجتمع ونتوقع أن تكون هذه القمة مظاهرة قوة ومبادرة عزم.. فالموقف السياسى لم يعد يحتمل ضعفا ولا ترددا ونحن نريد أن نرى العرب صفا واحدا وكلمة واحدة ويدا واحدة.. وأن نطمئن إلى أن المائة مليون لهم صوت ولهم هيبة.. وأن الحق له جلال وله صوله.

وأمام الظلم الإسرائيلى والتعنت الإسرائيلى والرفض الجائر

لجميع الحلول، رفض أوسلو ورفض مدريد ورفض كوبنهاجن ورفض مبدأ الأرض فى مقابل السلام.. نرى أن أضعف الإيمان أن نرفض التطبيع بقرار عربى جموعى.. وأن يعلن ياسر عرفات الدولة الفلسطينية.. وأن نسمع صوتا للمقاومة السورية فى الجولان.. وأن تشتعل الانتفاضة.

وهذا أقل القليل.

إن القول بأن السلام خيار استراتيجى.. لا يعنى أبداً أن الاستسلام أصبح الخيار الاستراتيجى.. ولا أحب أن يختلط هذا على فهم الآخرين فتصل إلى أفهامهم الرسالة الخطأ.. فالسلام هو شىء آخر غير الاستسلام.. والعرب لم يفقدوا الحياة بعد.

وعليهم أن يشعروا العالم أنهم أحياء.